معاملات الرب الحبية التأديبية معنا

إنَّ السيد الرب هو صاحب العبارات الفيَّاضة بأنغام الرِّقَّة والطمأنينة، التي لا تُقدِّم للنفس السَّقيمة إلَّا حضنًا دافئًا، فيه القلبُ يُرنِّم بأنغام الأبد بل ويرتقي فوق كل واقع أليم (انظر: مت ١١: ٢٨). إنَّ حياتنا في إجمالها وفي تفصيلها، لا تشهد للسيد إلَّا عن سياج المحبة والإحاطة بالعناية والقدرة الإلهيَّة. ألم يقل الشيطان للرَّب مرةً، مُظهِرًا ما في قلبه من حقدٍ ذميم على تقيٍّ وحائدٍ عن الشَّر: «أَلَيْس أَنَّكَ سَيَّجْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؟» (أي ١: ١٠). ألم يأتنس سائح القفر وشريد الخرائب، بهذهِ الإحاطة الحُبية؟: «وَجَدَهُ فِي أَرْضِ قَفْرٍ، وَفِي خَلَاءٍ مُسْتَوْحِشٍ خَرِبٍ. أَحَاطَ بِهِ وَلَاحَظَهُ وَصَانَهُ كَحَدَقَةِ عَيْنِهِ.» (تث ٣٢: ١٠).

لكن ما يَلْفِت الأنظار هو أسلوبٌ يبدو غريبًا عن أحاديث الرب الحُبّيَّة: «هأَنَذَا أُسَيِّجُ طَرِيقَكِ بِالشَّوْكِ، وَأَبْنِي حَائِطَهَا حَتَّى لَا تَجِدَ مَسَالِكَهَا. فَتَتْبَعُ مُحِبِّيهَا وَلَا تُدْرِكُهُمْ، وَتُفَتِّشُ عَلَيْهِمْ وَلَا تَجِدُهُمْ. فَتَقُولُ: أَذْهَبُ وَأَرْجِعُ إِلَى رَجُلِي الأَوَّلِ، لأَنَّهُ حِينَئِذٍ كَانَ خَيْرٌ لِي مِنَ الآنَ» (هو ٢: ٦-٧). فمن أين للسيد مثل هذه اللغة؟ ولماذا الحائط ولماذا السياج من الشوك؟ وإن كانت قدرة إلهنا تُحيط بنا وتُسيِّج طريقنا وحياتنا. فما سياج الشوك هذا؟ وما هذا الحائط إذًا؟

عندما نضل الطريق ونمعِن في البُعد، نرى الرب يُسيِّج طريقنا بالشوك ويبني الحوائط حتى لا نجد مسالكنا. فالرب هو الذي سيَّج طريقها - النفْس المُرتدَّة - بالشوك لكي يُعرقِلَ مسارها، ولكن أي مسارٍ؟ وهو الذي بنى حائطها حتى لا تجد سبيلها وتَفْشَل رغائبُها؟ وأيَّة رغائب يا تُرى؟ إنها رغائب السعي وراءَ سادةٍ سواه، بل جنوح القلب للتعلق بمن عداه.

يكثُرُ الوعيد وتكثُرُ المعاملات التأديبية في (هو ٢: ٥-١٣) فنسمع الرب يقول: «أُسَيِّجُ طَرِيقَكِ بِالشَّوْكِ ... أَبْنِي حَائِطَهَا ... أَرْجِعُ وَآخُذُ قَمْحِي ... أَنْزِعُ صُوفِي وَكَتَّانِي ... أَكْشِفُ عَوْرَتَهَا ... أُبَطِّلُ كُلَّ أَفْرَاحِهَا ... أُخَرِّبُ كَرْمَهَا وَتِينَهَا ... وَأَجْعَلُها وَعْرًا ... وَأُعَاقِبُهَا ...». ولكن بدءًا من (هو ٢: ١٤-٢٣)، تكثُرُ الوعود والتعويضات الحُبّيّة. فهناك تكامل وانسجام بين نعمة الله

وحكمته، فهو دائمًا بالنعمة يمنح، ولكن أحيانًا بالحكمة يمنع؛ ونظرًا لغيرته الشديدة، وتصميمه على الاحتفاظ بنا لحسابه، عندما تميل قلوبنا للابتعاد عنه، تظل واحدة من وسائل رد نفوسنا إليه، هي بناء الحوائط وسياج الشوك لكي لا نصل إلى أهدافِنا غير الشرعية، فنتبع ولا ندرك، نفتش ولا نجد. فتكون النتيجة أننا نعود فنقول: «أَذْهَبُ وَأَرْجِعُ إِلَى رَجُلِي الأَوَّلِ، لأَنَّهُ حِينَئِذٍ كَانَ خَيْرٌ لِي مِنَ الآنَ» (هو ٢: ٧).

فما أن نُبدي بادرة حقيقية للتوبة والرجوع إليه، وأول ما تلمح عيناه"فِج التين وقُعال الكروم" إلَّا وسريعًا يُحْيي في القلب ألحانَ الحنين: «قُومِي يَا حَبِيبَتِي، يَا جَمِيلَتِي وَتَعَالَيْ» (نش ٢: ١٣). فيقول السيد: «هأَنَذَا أَتَمَلَّقُهَا وَأَذْهَبُ بِهَا إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَأُلاطِفُهَا» (هو ٢: ١٤). لكنْ إن أراد العريس أن يتملَّق عروسَهُ أو يُغريها، وإن أراد مُلاطفتها، فهل البرية هي الجو المُناسب لذلك، أم البساتين اليانعة حيثُ مناظر الطبيعة الخلاَّبة، التي تجعل خرير الوِد ينساب بين الطرفين؟ فكيف تكون البرية هي الأجواء المُختارة مِن قِبَل العريس؟

أخي، هل تظُن أن الظروف الصعبة ووعورة الدَّرب في البرية هي التي تُبْعدنا عن السيد؟ هل نضع مثل هذه المبررات فنُلقي بالمسؤولية على صروف الزمان وليس علينا؟ هل تعلم لماذا سيصحبها العريس إلى البرية؟ ليس إلَّا ليُذكِّرَها "بمحبتِها الأولى"، وبصفوة مشاعرها نحوَهُ. فلم تكُن البرية إلَّا مكانًا فيه تأجَّجت المحبة وتوطَّدت أواصر الارتباط بالسيد. ألم يُرسل نبيَهُ ليُذكِّرَها: «قَدْ ذَكَرْتُ لَكِ غَيْرَةَ صِبَاكِ، مَحَبَّةَ خِطْبَتِكِ، ذِهَابَكِ وَرَائِي فِي الْبَرِّيَّةِ فِي أَرْضٍ غَيْرِ مَزْرُوعَةٍ» (إر ٢: ٢)؟ فسيذهب السيد بها إلى البرية، ليجعلها تعيش صفوة محبتها له من جديد.

ثمّ يُكْمِل السيد وعده الصادق لها: «وَوَادِي عَخُورَ بَابًا لِلرَّجَاءِ» (هو ٢: ١٥). إن الكلمة العبرية (عخور עָכוֹר)[1] تعني "كدر" وأشهر حادثة ارتبطت بهذا الموضع، هي حادثة خيانة عخان بن كرمي، الذي أخفى شيئًا من مغانم أريحا عند فتحها، عاصيًا أمر الله، فرجَمَهُ الشعب بالحجارة هو وعائلته، وأحرقوهم بالنار، وكان هذا القضاء بحسب أمر الرب (يش ٧). ولكَ أن تتخيَّل، مدى التدهور النفسي، والتوتر العصبي الذي كابدَهُ الشعب في هذا الوادي، الذي امتلأ بكل تأكيد، بصراخ مَنْ انهالت الحجارة على أجسادهم، ساحقة إياهم، بل امتلأ أيضًا الوادي برائحة لا حريق النفاية، بل حريق أجساد

(١) ومنها جاءت الكلمة في العربية "عكور"، أي ما يُعكِّر الحياة ويُكدِّرها.

البشر، بالإضافة إلى الشعور بشرِّ الهزيمة أمام عاي. لقد دُعيَ بحق وادي عخور أي وادي الكَدَر. ولكن، أيستلفتُ نظرَنا وعدُ السيد وليس وعيده؟ «وَادِي عَخُورَ بَابًا لِلرَّجَاءِ»؟ إن في ذات المواضع التي فشلت نفوسنا فيها فشلًا ذريعًا، بل التي فيها تجرَّعنا مرارة العلقم بسبب فشلنا المتكرر، تفتح لنا النعمة "بابًا للرجاء" على مِصراعيه. فهذه الأحداث المأساوية هي استثناء للقاعدة، هي نغمات نشاز وسط عزف متقن منسجم بديع.

إنّ الكواكب تدور في فَلَك شموسها، والإلكترونات تدور في فَلَك نواتها، ولقد خلق الله الإنسان لمجده: «لِمَجْدِي خَلَقْتُهُ وَجَبَلْتُهُ وَصَنَعْتُهُ» (إش ٤٣: ٧)، لكي يرتبط به ويدور في فَلَكه. فإن كان خروج كوكب عن مساره يسبب كارثة كونية، وخروج إلكترون عن مساره ينتج انفجارًا ذريًّا، فخروج الإنسان عن فَلَك إلهه، هي مأساة البشرية.

أخي الحبيب، لنقطع كل الرُّبط التي تربطنا بذاك الماضي الأسود! لننسَ كور المشقَّة وبيت العبودية! إن كنَّا قد دخلنا إلى الفُلْك، فلا نلتفت إلى العالم الهالك، كما يفعل الغربان (تك ٨). وإذا كنَّا قاصدين كنعان، فلا نشتهِ قدور اللحم التي في مصر (خر ١٦). وإذا كنَّا في حرب مع مديان، فلا ننسَ المُهمَّة العُظمَى التي أمامنا ونحن نشرب الماء (قض ٧). وإذا كنَّا قد وضعنا يدنا على المحراث، فلا ننظر إلى الوراء (لو ٩). لا نحاوِلنَّ أنْ نُحسِّن حالتنا كي نصل إلى الله، فحتمًا سنفشل وسيظهر عُرينا وخزينا، وهذا ما يعنيه الكتاب في (خر ٢٠: ٢٦): «وَلَا تَصْعَدْ بِدَرَجٍ إِلَى مَذْبَحِي كَيْلَا تَنْكَشِفَ عَوْرَتُكَ عَلَيْهِ». فطبيعتنا في حد ذاتها غير قابلة للتحسّن، كما يقول الحكيم: «إِنْ دَقَقْتَ الأَحْمَقَ فِي هَاوُنٍ بَيْنَ السَّمِيذِ بِمِدَقٍّ، لَا تَبْرَحُ عَنْهُ حَمَاقَتُهُ» (أم ٢٧: ٢٢)، فالطبيعة الساقطة فينا ليس لها علاج على الإطلاق، لا يمكن إصلاحها أبدًا مهما تهذَّب الانسان وتديَّن وتنسَّك فحماقته لا تبرح عنه. فحتمًا لا بدَّ له من ولادة من فوق: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ: الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ، هُوَ ذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا» (٢كو ٥: ١٧).

في العهد القديم، لم تكن النار تُخمَد أبدًا على مذبح النحاس، ففي كل صباح كان الكاهن يُغذِّيها بحطب جديد يضعه فيها (انظر: لا ٦: ١٢). بالمثل التأمل في محبة الرب العجيبة هو ذلك الحطب الذي يوضع على مذبح القلب كل يوم، فتظل نار الروح القدس تُشعِل القلب بمحبة الرب «الْمَحَبَّةَ ... الْغَيْرَةُ ... لَهِيبُهَا لَهِيبُ نَارٍ لَظَى الرَّبِّ» (نش ٨: ٦).

يقول الرسول: «لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ تَحْصُرُنَا συνέχει» (٢كو ٥: ١٤) كلمة تحصرنا

معناها الضغط من كل جهة[٢]. فبولس يُقرّ بأنه لم يكن بمقدوره أن يترك الكرازة كي يتجنَّب مخاطرها الشديدة، فهو مُقيَّد بمحبة المسيح التي ضغطت عليه من كل جهة فلم يقدر سوى أن يحيا خادمًا له. أبفرودتس اشتعل قلبه بمحبة الرب فقيل عنه: «لأَنَّه مِنْ أَجْلِ عَمَلِ الْمَسِيحِ قَارَبَ الْمَوْتَ، مُخَاطِرًا بِنَفْسِهِ» (في ٢: ٣٠). وكذلك مؤمنو كنائس مكدونية تعرَّضوا للاضطهاد بسبب إيمانهم وحدثت لهم أزمات اقتصادية، لكن لم يتوقف عطاؤهم المادي للرب (انظر: ٢كو ٨: ٢-٤)، فلا شيء يطفيء نيران الحب سوى الخطيئة (انظر: مت ٢٤: ١٢).

أخي، أيًّا كان دورك في خدمة الرب: قائدًا كبولس، مساعدًا كأبفرودتس، أو كانت خدمتك تقتصر على الشهادة بسلوكك وكلماتك وعطائك المادي كبعض مؤمني مكدونية، فالحقيقة واحدة لا تتغيَّر. فالتأمل في محبة الرب وما فعله من أجلنا: إنه أحرق خطايانا في جسده، أنقذنا من الهلاك الأبدي، أعطانا حياة أبدية، وصارت لنا مكانة عظيمة في شخصه، فهذا التأمُّل هو الحطب المبارك الذي تُشعله نار الروح القدس داخل القلب؛ حطب تزيده الخدمة اشتعالًا وتطفئه الخطيئة.

قال الرب يسوع عن المرأة الخاطئة: «أَمَّا هِيَ فَمُنْذُ دَخَلْتُ لَمْ تَكُفَّ διαλείπω عَنْ تَقْبِيلِ رِجْلَيَّ» (لو ٧: ٤٥). عبارة "لا تكف" شائعة الاستعمال في الوسط الطبي في ذلك الوقت، تشير إلى شخص لا يقدر أن يتوقف عن العلاج لأنَّه لا يزال مريضًا[٣]. لقد صارت المرأة كالمريضة التي لا تقدر أن تكف عن العلاج وما هو علاجها؟ أن تستمر في تقبيل قدمي الرب.

قال الرب: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَيَّ وَلَا يُبْغِضُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَامْرَأَتَهُ وَأَوْلَادَهُ وَإِخْوَتَهُ وَأَخَوَاتِهِ، حَتَّى نَفْسَهُ أَيْضًا، فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَكُونَ لِي تِلْمِيذًا» (لو ١٤: ٢٦). هل يطلب المسيح أن "نُبغِض" أقاربنا؟ كلَّا، إنه يطلب أن تكون محبتنا له هكذا عظيمة، لدرجة أنه تصبح كل محبة أخرى بُغضًا بالمقارنة مع المحبة له. بالرجوع إلى (مت ١٠: ٣٧-٣٨) نجد شروط التلمذة بلغة أوضح «مَن أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلَا يَسْتَحِقُّنِي». إن شروط تبعية المسيح متضمِّنة في هاتين الكلمتين "الله أولًا".

---

(2) A. T. Robertson, *Word Pictures in the N. T.*, Baker, Michigan, 1930, Vol. IV, p. 230. See Luke 8:45.

(3) Marvin R. Vincent, *Word Studies in the N.T.*, MacDonald Publishing Company, Virginia, Vol. 1, P.329.